الفصل الرابع والعشرون

جوته « تسطورا »(*)

١٨٠٥ — ١٨٣٢

١ — جوته ونابليون

أيحسن بنا — ونحن مقيدون بحدودنا المقررة — أن نترك جوته معلقا عند هذه النقطة ، وعلى قلمه فاوست وفى شبخوخته الحكمة ، أم أن نلاحق هذا الأولمبى — الذى لا يكف عن التطور — إلى نهايته ، مقلبين الصحائف مضحين بالوقت ؟ « إن الحكمة السرمدية تجذبنا إلى العلا » .(١)

فى ١٤ أكتوبر ١٨٠٦ هزم نابليون البروسيين فى يينا . وكان الدوق كارل أوجست ، المتحالف مع بروسيا ، قد قاد جيشه الصغير ضد الفرنسيين فى تلك المعركة . ودخل الأحياء المدحورون فايمار ، وأعقبهم الغالبون الجياع ، فنهبوا المحال واحتلوا بيوت الناس . واستولى ستة عشر جنديا الزاسيا على بيت جوته ، وأعطتهم كرستيانه الطعام والشراب والفراش . فى تلك الليلة اقتحم البيت جنديان آخران ثملا بالخمر ، فلما افتقدا الأسرة فى الطابق الأسفل ، صعدا عدوا إلى حجرة جوته ، ولوحا بسيفيهما فى وجهه ، وطالباه بمكان للنوم ، ووقفت كرستيانه حائلا بين الجنديين ورفيقها ، وأقنعتهما بالخروج ثم أرتجت الباب . وفى الخامس عشر من الشهر وصل نابليون إلى فايمار وأعاد النظام إلى نصابه ، وصدرت التعليمات بعدم إزعاج « الأديب الكبير » وبضرورة اتخاذ جميع الإجراءات لحماية جوته العظيم وبيته .(٢) ومكث معه المارشالات لان ونيه وأوجروا برهة ثم رحلوا معتذرين مجاملين . وشكر جوته كرستيانه على شجاعتها وقال لها « إن أذن الله سنكون زوجا وزوجة » وفى ١٩ أكتوبر تزوجا . أما أمه الطيبة التى احتملت فى حب جميع مثالبه ، وفى تواضع جميع مفاخره ، فقد جددت بركاتها لهما . ثم ماتت فى ١٢ سبتمبر ١٨٠٨ ، وورث جوته نصف تركتها .

---

(١) أى المرشد الحكيم المتقدم فى السن (المترجم) .

وفى أكتوبر ١٨٠٨ رأس نابليـــون مؤتمرا من ستة ملوك وثلاثة وأربعين أميرا فى أرفورت ، وأعاد رسم خريطة ألمانيا ، وحضر الدوق كارل أوجست المؤتمر واصطحب جوته فى بطانته . وطلب نابليون إلى جوته أن يزوره فى ٢ أكتوبر ، وذهب الشاعر ، وأنفق ساعة مع الغازى ، وتاليران ، وقائدين ، وفريدريش فون مولر ، وهو قاضى فايمارى . وهنأه نابليون على عافيته (وكان جوته يومها فى التاسعة والخمسين) ، واستفسر عن أسرته ، ثم دخل فى نقد جرىء لڤرتر . وقد عاب الدرامات الشائعة التى تؤكد على القضاء والقدر « فلم الحديث عن القضاء والقدر ؟ إن السياسة هى القضاء والقدر ... ما قول المسيو جوته فى هذا ؟ » ولا علم لنا بجواب جوته ولكن موللر روى أن نابليون قال لقواده معلقا بينما جوته يبرح الحجرة « هاكم رجلا ! » (٣) .

وفى ٦ أكتوبر عاد نابليون إلى فايمار ، واصطحب معه فرقة ممثلين من باريس من بينهم تالما العظيم . ومثلوا فى مسرح جوته مسرحية فولتير « موت قيصر » وعقب الحفلة انتحى نايليون بجوته جانبا وناقش معه التراجيديا ، فقال «إن الدراما الجادة تصلح جدا لأن تكون مدرسة للأمراء كما هى مدرسة الشعب ، لأنها من بعض نواحيها فوق التاريخ ... يجدر بك أنت أن تصور موت قيصر صورة أبهى مما صوره فولتير ، وتبين كم كان قيصر (نابليون) سيسعد العالم لو أن الشعب أتاح له الوقت لإنفاذ خططه السامية . «ثم بعد قليل » لابد أن تأتى إلى باريس ! إنى أوجه إليك هذا الرجاء المشدد ! ستتاح لك هناك نظرة أوسع للعالم ، وستجد ذخيرة من الموضوعات لشعرك » (٤) وحين مر نابليون بفايمار ثانية عقب تقهقره المشئوم من موسكو طلب إلى السفير الفرنسى أن يبلغ جوته تحياته .

وأحس الشاعر أنه فى بونابرت قد التقى ، على حد تعبيره ، بـ « إعظم فكر شهده العالم » (٥) إلى الآن . وقد وافق تماماً على حكم نابليون لألمانيا ، فلم يكن هناك ألمانيا على أية حال (كما كتب جوته فى ١٨٠٧) إنما هى خليط من الدويلات ، أما الإمبراطورية الرمانية المقدسة

فقد نفذ قضاء الله فيها فى ١٨٠٦ ، وبدا لجوتة أن من الخير أن تتوحد اوربا ، لا سيما تحت رأسة رجل ألمعى كبونابرت . ولم يغتبط بهزيمة نابليون فى واترلو ، مع أن دوقه قاد أفواج فايمار مرة أخرى ضد الفرنسيين . لقد كانت ثقافته واهتماماته أشمل وأعم من أن يتيحا له الشعور بالكثير من الزهو الوطنى ، ولم يستطع أن يستشعر فى نفسه الميل لتأليف الأغانى ذات الحماسة القومية رغم كثرة ما طلب إليه . قال لاكرمان وهو فى الثمانين :

« أنى لى أن أؤلف أغانى الحقد وأنا لم أشعر بشىء من الكره ؟ وأقول فيما بينى وبينك أننى لم أكره الفرنسيين قط وإن شكرت الله على خلاصنا منهم . وأنى لى ، أنا الذى أرى الحضارة والهمجية الشيئين الوحيدين اللذين لهما مغزى ، أن أبغض أمة هى من أكثر أمم الأرض ثقافة ، أمة أدين لها بجزء عظيم من ثقافتى ؟ على أية حال أرى أن مسألة الكراهية بين الأمم هذه شىء غريب . فأنت ستجدها دائما أقوى وأشد مما تكون ضراوة فى المراتب الدنيا من المدنية . ولكن يوجد مستوى تختفى فيه كلية ، ويقف عليه الإنسان فوق الأمم إذا جاز التعبير ، ويحس أفراح شعب مجاور أو أتراحه كأنها أفراحه هووأتراحه . ولقد كان هذا المستوى يلائم طبيعتى ، ولقد بلغته قبل أن أبلغ الستين بزمن طويل »[٦] .

ألا ليت كل دولة غنيت بمليون من هؤلاء « الأوربيين الصالحين ! » .

٢ ــ فاوست : الجزء الأول

لم يقبل جوتة دعوة نابليون أياه للانتقال إلى باريس أو للكتابة عن قيصر ، ذلك أنه طالما احتضن فى ذهنه وفى مخطوطاته موضوعاً أثاره إثارة أعمق حتى من أعظم مستقبل سياسى : الا وهوصراع النفس لبلوغ الفهم والجمال « وهزيمة النفس بسبب قصر عمر الجمال وروغان الحقيقة ، والسلام المستطاع للنفس ، بتضييق الهدف وتوسيع الذات . ولكن كيف

السبيل إلى تخيل هذا كله فى قصة رمزية عصرية وشكل درامى ؟ لقد ظل جوته يحاول تحقيق هذا الهدف ثمانية وأربعين عاما .

وكان قد تعلم قصة فاوست (٧) فى طفولته من كتيبات القصص الشعبية ومسارح الدمى ، ورأى صوراً لفاوست والشيطان على جدران حانة آورباخ فى ليبزج . وتطفل هو نفسه فى شبابه على السحر والخيمياء ، وامتزج بحثه الدءوب عن الفهم بتصوره لفاوست ، ودخلت قراءته لفولتير وإلمامه بتهكمات هردر فى تصويره لفستوفيليس ، وأعطت جريتشن التى أحبها فى فرنكفورت ، وفردريكه بريون التى هجرها فى زيزنهايم ، لمارجريت أسمها وصورتها .

ويتجلى عمق تأثر جوته بقصة فاوست ، وتباين الأشكال التى اتخذتها فى فكره ، إذا علمنا أنه شرع فى تأليف المسرحية فى ١٧٧٣ فلم يفرغ منها إلا فى ١٨٣١ . وحين التقى بهردر فى ١٧٧١ كتب فى ترجمته الذاتية :

« أخفيت عنه فى تكتم شديد اهتمامى بشخوص معينة أصلت جذورها فى وكانت تشكل نفسها شيئاً فشيئا فى صورة شعرية . وتلك هى جوتزفون برليشنجن وفاوست . . . فمسرح عرائس فاوست ذو المغزى كان يجلجل ويتردد فى باطنى بأنغام كثيرة . كذلك كنت قد طوفت فى شتى ضروب العلم ، وانتهيت فى فترة مبكرة من حياتى إلى تبين بطلانه . ثم إننى جربت كل أساليب العيش فى الحياة الواقعية ، وكنت دائماً أعود منها ضيق النفس غير راض عنها . هذه الأشياء وغيرها حملتها معى وسعدت بها فى ساعات العزلة ولكن دون أن أكتب شيئاً » (٨) .

وفى ١٧ سبتمبر ١٧٧٥ كتب إلى مراسل يقول : « أحسست بانتعاش هذا الصباح وكتبت مشهداً فى مسرحيتى فاوست » (٩) . وفى تاريخ لاحق من ذلك الشهر سأله بوهان تسمرمان عن سير المسرحية . « فأتى بحقيبة مملوءة بمئات من قطع الورق وألقاها على المائدة . وقال : هاك فاوستى » (١٠) . وحين ذهب إلى فايمار (نوفمبر ١٧٧٥) كان أول شكل للدراما قد اكتمل (١١) . ولكنه نحاها لأنه لم يرض عنها ، ولم تصل « فاوست الأصلية »

هذه قط إلى المطبعة إلا فى ١٨٨٧ حين وجدت فى فايمار [١٢] نسخة خطية نسختها الآنسة فون جوشهاوزن . وراح ينفخ ويوسع فيها طوال خمسة عشر عاما أخرى . وأخيراً نشرها (١٧٩٠) باسم «شذره من فاوست » تبلغ الآن ثلاثا وستين صفحة ، [١٣] وكان هذا أول شكل مطبوع لأشهر مسرحية منذ هاملت .

على أن جوته ظل غير راض عنها ، فأسقط الموضوع حتى ١٧٩٧ .وفى ٢٢ يونيو كتب إلى شيلر يقول « أعتزمت أن أستأنف كتابة « فاوستى » مفككا ماطبع منها ، مرتبا إياه فى كتل كبيرة . . . معداً تطور المسرحية إعدادا أو فى ..... كل ماأريدة أن تتفضل بتقليب الأمر فى فكرك فى ليلة من لياليك النابغية — وتخبرنى بما تتطلبه من المسرحية بوصفها كلا ، وتفسر لى أحلامى تفسير نبى صادق . ورد عليه شيلر فى الغد . « أن ازدواج الطبيعة البشرية ، ومحاولة الإنسان الفاشلة للجمع بين العنصر الإلهى والعنصر الجسدى ، لا تغيب عن البصر أبداً . . . أن طبيعة الموضوع ستكرهك على تناوله فلسفيا ، وعلى الخيال أن يكيف نفسه لخدمة فكرة عقلية . »أما خيال جوته فكان غاية فى الخصوبة ، وأما تجاربه الناصعة الذكرى فكثيرة جدا ، لذلك أدخل الكثير منها فى «شذرة من فاوست» فضاعف بذلك من حجمها ، وفى ١٨٠٨ أذاع على العالم ما نسميه الآن الجزء الأول من فاوست .

وقبل أن ينطق دميته بكلمة ، صدر الدراما بإهداء رقيق إل أصدقائه الموتى ، ويفصل تمهيدى هزلى « بروليوج فى المسرح » بين المدير والمؤلف والمضحك ، و « بروليوج فى السماء » يراهن الله فيه مفستوفيليس على أن فاوست لايمكن أن يظفر به الإثم بصفة دائمة . ثم يتكلم فاوست أخيراً فى فى أبسط شعر هزلى :

« أجهدت نفسى فى دراسة الفلسفة والشريعة والطب ، وتعمقت أيضاً — ويالالحسرة فى دراسة علوم الدين ، بجد لا يعتوره فتور وهمة لا تعرف الكلال . ثم أرانى — أنا البليد المسكين — بعد هذا كله لم أتقدم شبرا ولم أخط نحو العرفان خطوة .

« سميت الأستاذ والدكتور ، وقضيت زهاء عشر سنوات وسط تلاميذى أخادعهم وأغرر بهم وأذهب بهم ذات اليمين وذات الشمال . ثم أرانا بعد هذا كلة لم نزل عاجزين عن أن ندرك شيئاً أو أن نلم بشىء[١٤] » (*)

وقد تبين أن البحر الرباعى التفاعيل ، المنحدر من تمثيليات هانز زاكس القصيرة ، هو الوزن المترقرق اللائق لدراما هذبت الفلسفة بالفكاهة .

وفاوست هو بالطبع جوته ، حتى فى كونه رجلا فى الستين ، لم يزل كجوته يتناشى فى الستين بحسن المرأة ورشاقتها . وتطلعه المزدوج إلى الحكمة والجمال هو روح جوته الضميم ، وقد تحدى تطلعه الآلهة المنتقمة بوقاحته ، ولكنه كان نبيلا . لقد قال فاوست وجوته نعم للحياة ، الروحية والحسية ، الفلسفية والمرحة ، وعلى النقيض من ذلك كان مفستوفيليس (وهو ليس ابليس بل فيلسوف إبليس فقط) شيطان الإنكار والشك ، كل تطلع فى نظره هراء ، وكل حس إنما هو هيكل عظمى يكسوه جلد . وقد كان جوته فى لحظات كثيرة هذا الروح الساخر أيضاً . وإلا لما استطاع أن يسبغ عليه هذا الذكاء وهذه الحياة . ويبدو مفيستوفيليس أحياناً صوت التجربة ، والواقعية والعقل ، يكبح رغبات فاوست وأوهامه الرومانسيـــة ، والحق ، كما قال جوته لاكرمان « إن شخصيه مفستوفيليس ... حصيلة حية لخبرة واسعة بالدنيا »[١٥] .

وفاوست لا يبيع روحه بغير شروط ، فهو لا يوافق على أن يقذف به فى الجحيم إلا إن أراه مفيستوفيليس لذة فيها من الإشباع الدائم له ما يحبب له معايشتها إلى الأبد :

« لئن جاء اليوم الذى أرقد فيه على فراش الكسل والراحة ، . . . فليكن ذلك اليوم آخر عمرى ! ... ولو مرت بى لحظة من الزمن وكانت من الحسن بحيث قلت لها أن « لا تبرحى فما أحلاك ! إذن فتهيىء لى سلاسلك وأغلالك ... هنالك أرحب بالموت » ...(**)

(*) الترجمة للدكتور عوض محمد : فاوست : لجنة التأليف والترجمة والنشر ص (٧)

(**) فاوست : د . محمد عوض محمد ، ص ٥٨

وبهذا الشرط يبرم فاوست حلقة مع دمه ويصيح فى استهتار «هلم نطفىء الآن ظمأ رغباتنا المتأججة فى بحر من الشهوات »(١٦) .

ويأخذه مفيستوفوليس إلى مارجريت — « جريتشن » فيجد فيها فاوست كل فتنة البساطة التى تولى مع المعرفة وتعود مع الحكمة . ويتودد إليها بالجواهر والفلسفة :

« مارجريت : قل لى مارأيك فى الديانة ؟ لست أنكر أنك من أطيب الناس وأحسنهم . لكنى أخشى أن تكون قليل الإيمان .

فاوست : دعى هذا ياحبيبتى ! أنت ترينى متيماً بك ؛ أود أن أبذل من أجل حبك لحمى ودمى ،وما أريد لعمرى أن أسلب أحدا دينه ومعتقده .

مارجريت : هذا خطأ . يجب على الإنسان أن يؤمن بالدين ! ... قل لى : هل تعتقد وتؤمن بالله ؟

فاوست : أيتها الحبيبة ! من ذا الذى يستطيع أن تبلغ به الجرأة والقحة أن يقول « أنا أعتقد بالله » ...

مارجريت : إذن فأنت لا تؤمن بالله ؟

فاوست : لاتسيئى فهم أقوالى أيتها الحبيبة : أى الناس يقدر أن ينطق باسمه ؟ وأيهم يستطيع أن يقول « أنا لاأؤمن به ؟ وأى الورى يحس ويبصر ، ويسمع ، ويعى ، ثم يجرؤ أن يقول « أنا لاأؤمن به » ؟ ذلك القابض على كل شىء والممسك كل شىء ؟ أليس هو الممسك لى ولك ولنفسه ! أما تنظرين إلى السماء كيف رفعت وإلى الأرض كيف سطحت ؟ . . . وإلى هذه النجوم الزهر تسبح فى السماء ، مرسلة ضياءها الأبدى المحبوب ؟ ... فمن هذا كله فاملأى قلبك حتى يطفح ... بتلك السعادة ، ويستنير بذلك النور . وعندئذ فلتسميه كما تشائين ، ولتدعيه بما يحلو لك من الأسماء : السعادة أو القلب أو الحب أو الرب . أما أنا فما له اسم عندى . وكل همى أن أحسه وأستشعره . فالشعور هو كل شىء ! وما الإسم إلا صدى لاطائل تحته ، أو غمام يستر عن أبصارنا محيا الشمس البديع .

مارجريت : هذا كله حسن وجميل ... لكنى مازلت قلقة لأنى أرى قدماك فى المسيحية غير راسخة .

فاوست . ولم أيتها الطفلة العزيزة ![17]» (*) .

وهى لا تتأثر بحلوليته الغامضة ، بل بالصورة الجميلة والثياب الرائعة التى خلعها سحر مفيستوفوليس على شبابه المجدد .وهى تنشد على مغزلها أنشودة ملؤها الحنين الحزين(**) .

« أنا — صبحى ومسائى
فى عذاب وبلاء ،
واعنائى ! واشـــقائى !
هل لدائى من دواء ؟
كيف لا يشـــتد خطى
كيف لا يزداد كربى
كيف لا يحـــزن قلبى
وحبيب القلب ناء ؟
بان صـــفو العيش عنى
قرح التســـهيد جفنى ،
لم يســـكن نار حزنى
دمع عينى وبكائى .
قد نبا عـــنى الرقاد
وبرى جســـمى السهاد
آه ! قد طال البعـــاد
وشـــفائى فى اللقاء .

(*) فاوست ، ترجمة د . محمد عوض محمد ص ١٤٧ ، ١٤٨ .

(**) مترجمة بتصرف بقلم د . محمد عوض محمد : فاوست ص ٢٤٤

فتى يسمـــح دهرى
ويرينى وجـــه بدرى
قد أضل الحب فكرى
والهوى أعضل داء :
أوما يدنو الحبيب
فأرى العيش يطيب ؟
الهوى أمر عجيب
منه ســـقمى ودوائى ؟
ما أحـــلاه إذا ما
ثغره ابدى ابتساما !
قد حكى البـــدر التماما
فى ســـناء وبهاء .
آه لو أشـــفىَ بلثمة
منه أو أحظى بضمة !
ثم يقضى الدهر حكمه
بهـــلاكى وفنائى (١٨) .

وبقية القصـــة يعرفها الغرب كله ، ولو من جونو فقط . فمارجريت تعطى أمها شرابا منوما لا تفيق منه لكى تقبل هى حبيبها وتغيب عن الوعى دون رقيب . ويقتل فاوست فالتين أخا مارجريت فى مبارزة ثم يختفى ؛ أما مارجريت فتقتل طفلها العديم الأب خزياوحسرة ، فيقبض عليها ويحكم عليها بالإعدام . ويزورها فاوست فى زنزانتها ويرجوها أن تهرب معه ، فتعانقه ، ولكنها ترفض مغادرة زنزانتها . ويجذب مفيستوفيليس فاوست بعيدا ، بينما يصيح صوت من السماء « كتبت لها النجاة » .

ولم يدرك جمهور القراء — إلا ببطء — أن فاوست ١٨٠٨ هذه أروع دراما وأجمل شعر أنتجتهما ألمانيا إلى ذلك التاريخ . ولكن قلة من أصحاب العقول اليقظة فطنوا للتوالى أنها جديرة بأن تتبوأ مكانها بين شوامخ الأدب العالمى . وشبه فريدريش شليجل جوته بدانتى ، وسوى جان بول رشتر بينه وبين شكسبير ، ورفعه فيلاند فى دنيا الشعر إلى مقام السيادة الذى ارتفع إليه نابليون فى دنيا الحكم والحرب (١٩) .

٣ — نسطور عاشقاً

فى السنوات ١٨١٨ — ٢١ دخل جوته فى غرامين مثيرين ، فضلا عن صلته ببتينا برنتانوا . ففى ٢٣ أبريل ١٨٠٧ جاءت بتينا ذات الاثنين وعشرين ربيعا إلى الشاعر المسن بخطاب تقديم من فيلاند . وكانت حفيدة صوفى فون لاروش التى أحبت فيلاند من قبل ، وابنة مكسمليانه برنتانو التى غازلت جوته فى شبابها . وقد أحست أن لها دالة الحفيدة على قلب جوته . ولم تلبث بعد أن دخلت حجرته أن ألقت بنفسها بين ذراعيه . وقبلها هو على أنها طفلة ، وبعدها كان يراسلها بهذا المعنى ، ولكنه طوى رسائله على أحدث قصائده الغزلية ، ومع أنها لم تكن موجهة إليها إلا أنها عدتها بوحاً بغرام مشبوب ، وأضفت عليها ذلك اللون فى كتابها « رسائل جوته إلى طفلة » الذى نشرته فى ١٨٣٥ .

أما ملهمة أكثر هذه القصائد فهى فلهلمينا هرتسليب . وكافت منا ، كما دعاها جوته بعد قليل ، ابنة كتبى فى يينا . وقد عرفها طفلة ، ولكنها فى عام ١٨٠٨ كانت فى التاسعة عشرة ، فتاة خجولا ، رقيقة ، مشرقة . وكانت تتلقف كل كلمة يفوه بها ، وتتحسر على أن شيخوخته ومكانته الاجتماعية تمنعانها من عشقه وتملكه . وأدرك هو شعورها ، واستجاب له ونظم لها الصونيتات ، موريا على اسمها كقلب محب ، ولكنه تذكر أنه لم يمض على زواجه من كرستيانه إلا زمن قصير . ويلوح أنه كان يفكر فى منا وهو يصـــور أوتيلييه الخجول الودود ، المشدودة الأعصاب ، فى قصته « الانجذابات العاطفة ١٨٠٩ » .

وهذه القصة الممتازة ، فى رأى مؤلفها (٢٠) ، خير قصصه المنثور ، فهى أفضل تنظيما وأكثر تماسكا فى روايتها من أى من تطويفات فلهلم مايستر. وهنا نلاحظ قول جوته لأكرمان (٩ فبراير ١٨١٩) : « ليس فى قصة (الانجذابات العاطفة) بأسرها سطر لم أعشه أنا نفسى حقيقة وفعلا ، ووراء النص معان أكثر كثيرا مما يستطيع أى إنسان استيعابه من قراءة واحدة » . والواقع أن عيب الكتاب أن فيه من جوته أكثر مما يجب ، ومن التفلسف الجارى على ألسنة لا يتوقع أن يجرى عليها قدر أكبر مما ينبغى .

(مثال ذلك أنه يجعل الفتاة أوتيلييه تحتفظ بيومية يودع فيها بعضا من أنضج التأملات كقوله « لا سبيل إلى الدفاع عن أنفسنا أمام التفوق العظيم فى إنسان غبرنا سوى سبيل الحب (٢١) . ولكن احتواء هذا الكتاب على هذا القدر الكثير من جوته هو الذى يجعله دافئاً بالحياة غنياً بالفكر : لأن شارلوتة القصة هى أيضا شارلوته فون شتين ، تغرى ولكنها تأبى أن تخون زوجها ، ولأن الكبتن هو جوته العاشق لزوجة صديقه ، ولأن إدورد ، الزوج ذا الخمسين المقيم بأوتيلييه هو جوته المفتن بمنا هر تسليب ، ولأن القصة هى محاولة جوتة تحليل حساسيته الشبقة .

وقد قصد هنا أن يفكر فى الجاذبية الجنسية بلغة كيميائية . وربما اتخذ عنوان كتابه من « الإنجذابات العاطفية » الذى نشره الكيميائى السويدى العظيم توربرن أولوف برجمان فى ١٧٧٥ . والكبتن يصف لادورد وشارلوته انجذابات جزئيات المادة وتنافراتها وتجمعاتها فيقول : « ينبغى أن تريا بنفسيكما هذه الجواهر — التى تبدو ميتة جداً وهى مع ذلك زاخرة باللشاط والقوة — تعمل أمام عيونكما ، يبحث بعضها عن بعض . . . ويمسك ويسحق ويلتهم ويدمر بعضها بعضاً ، ثم يعود إلى الظهور فجأة . . . فى صور نضرة ، مجددة ، غير متوقعة . »(٢٢) فحين يدعو ادورد صديقه الكبتن ، وتدعو شارلوته إبنة أخيها أوتيلييه ، للإقامة معهما فى زيارات طويلة ، يهيم الكبتن بشارلوته ، وإدورد بأوتيلييه . وحين يتصل إدورد بزوجته جنسياً يفكر فى أوتيلييه ، وتفكر

شارلوته فى الكبتن ، فى ضرب من الزنا السيكولوجى : ويبدو الوليد عجيب الشبه بأوتيلييه ، وتحنو أوتيلييه على الطفل كأنه طفلها . ثم تتركه ليغرق كأنما جاء ذلك مصادفة ، ويحملها تأنيب الضمير على أن تضرب عن الطعام حتى الموت . ويموت إدورد حسرة ، ويحتفى الكبتن ، وتبقى شارلوته على قيد الحياة ، ولكنها ميتة روحياً .

ويخلص فيلسوف فى المدينة إلى أن « الزواج هو البداية والنهاية لكل ألوان الحضارة . أنه يروض المتوحشين ، ويمنح أكثر الناس ثقافة ، خير فرصة للرقة ودماثة الخلق . وينبغى أن يكون غير قابل للفسخ لأنه يجلب من السعادة الكثير ، ما يجعل متاعبه العارضة لا وزن لها [٢٣] » : على أن أحد شخوص القصة يقترح بعد أربع صفحات من هذا القول زواج التجربة الذى لا يتجاوز العقد فيه فى المرة خمس سنوات .

وفى ١٨١٠ نلتقى بجوتة فى كارلسباد يستشفى بمياهها ويغازل شاباتها ، بينما تظل كرستيانه التى مضى على زواجها أربعة أعوام فى البيت تغازل الشبان . فقد تتيمت بالشاعر ذى الحادية والستين عاما يهودية حسناء سمواء تدعى ماريانه فون إيبنبرج ، ثم هرب منها إلى الشقراء سلفى فون تسيجزار : وفى قصيدة وجهها إلى سلفى يدعوها « الأبنة الخليلة ، الحبيبة ، البيضاء النحيفة القوام »[٢٤] ، وقد أرسلت إليه كرستيانه نداءات تناشده الوفاء :

« وهل وصلت بتينا وتلك السيدة فون أيبنبرج إلى كارلسباد ؟ يقولون هنا إنه من المتفق عليه أن تكون زلفى وآل جوترز هناك أيضاً . فلماذا أنت صانع وسط كل معابثاتك ؟ ما أكثرها ! ولكنك لن تنسى أقدمها عهداً ، أليس كذلك ؟ فكر فى قليلا أيضا ، بين الحين والحين ، إنى أريد الوثوق بك ثقة تامة ، مهما قال الناس . لأنك كما تعلم الوحيد الذى يفكر فى إطلاقاً » [٢٥] . و يبعث إليها بهدايا صغيرة .

وقد وجد وقتا كل يوم تفريبا لكتابة شىء من الشعر أو النثر . وحوالى عام ١٨٠٩ بدأ يكتب سيرته الذاتية ، وقد سماها « الخيال والحقيقة من حياتى » واعترف العنوان اعترافا جميلا بأنه بين الحين والحين ، عن عمد أو غير عمد ،

ربما مزج الجيال بالواقع . أما غرامه بشارلوته بوف فقد مسه مسا خفيفا رقيقا ، ولكنه كان أكثر إفاضة فى قص غرامه بفردريكه بريون ، وكانت المرأتان لا تزالان على قيد الحياة . ثم حال فى براعة وأريحية الكثير من أصدقاء شبابه — لنتس ، وبازدوف ، ومرك ، وهردر ، وياكوبى ، ولافاتر . أما عن نفسه فقد تكلم فى تواضع ، وقد شكا فى ملاحظاته الخاصة من أن كاتب السيرة الذاتية يتوقع منه الناس أن يعترف بنقائصه ولا يعلن عن فضائله (٢٦) . والكتاب تاريخ فكر أكثر منه تاريخ حياة ، والأحداث فيه قليلة والتأملات وفيرة . أنه أعظم كتبه النثرية »

وفى ١٨١١ تلقى من بيتهوفن خطاب إعجاب مع «مقدمة موسيقية لأجمونت». والتقى الشاعر والمؤلف الموسيقى فى تبلتز فى يوليو ١٨١٢ ، وعزف بيتهوفن لجوته وكان يتمشى معه . وإذا صدقنا الروائى أوجست فرانكل ، « كان الناس فى المتنزه — أينما ذهبا — يفسحون لهما الطريق باحترام ويحيونهما . وقال جوته وقد غاظته هـــذه المقاطعات المستمرة : « يا لها من مضايقة ! لا أستطيع أبدا تجنب هذا الأمر. » وأجاب بيتهوفن بابتسامة «لا يضايقك هذا يا صاحب السعادة ، فلعلى أنا المقصود بالاحترام . » وكتب جوته إلى تسلتر (٢ سبتمبر ١٨١٢) : « لقد أذهلتنى موهبة بيتهوفن ، ولـكن شخصيته للأسف لا يمكن السيطرة عليها إطلاقا . إنه ليس مخطئا ... فى اعتباره العالم بغيضا ، ولكن هذا الموقف لا يجعل هذا العالم أكثر إمتاعا لا له ولا لغيره . وكثير من هذا الموقف يلتمس له العذر فيه بسبب مؤسف هو أنه يفقد قدرته على السمع . » (٢٧) أما تعليق بيتهوفن على جوته فكان « ما أشد صبر الرجل العظيم على ! وما أعظم الخير الذى أسداه إلى ! ولكن « جو البلاط يلائمه أكثر مما ينبغى . » (٢٨)

لقد كانت مظاهر البلاط وسلوكه جزءا من حياة جوته الرسمية ، لأنه كان لا يزال يمارس نشاطه فى الإدارة . أما حياته البيتية فقد فقدت سحرها. فأوجست ابنه ، الذى بلغ الثانية والعشرين فى ١٨١٢ ، كان ضعيف المواهب لا أمل فى إنقاذه ، وكرستيانة باتت بدينة مدمنة للشراب ، وكان لها بعض العذر ، لأن مغازلاته للنساء لم تتوقف . فخلال زياراته لفرانكفورت ، كثيرا

ما كان يقيم فى فيلا يوهان فون فلليمير الواقعة فى إحدى الضواحى ، وكان يعجب بماريانه زوجة فلليمير . وفى صيف ١٨١٢ أنفق أربعة أسابيع تقريبا معهما . وكانت مريانه فى الحادية والثلاثين ، ولكنها كانت فى ريعان جمالها الأنثوى . وكانت تغنى أشعار جوتة العاطفية وألحان موتسارت غناء ساحرا ، وتنظم الشعر الرفيع ، وتتبادل مع جوته سلسلة من القصائد محاكاة لحافظ والفردوسى وغيرهما من شعراء الفرس (وكان حافظ قد ترجم إلى الألمانية فى ١٨١٢) . وفى بعض القصائد شهوانية سافرة وحديث عن الفرح المتبادل فى العناق الجسدى ، ولكن هذا الترخص قد يكون مجرد انحراف شعرى . والتقى الثلاثة مرة أخرى فى سبتمبر بهيدلبرج ، وكان الشاعران يخرجان معا فى مسيرات طويلة ، وكتب جوته اسم مريانه بحروث عربية فى التراب حول نافورة القلعة . ولم يلتقيا قط بعد ذلك اليوم ، ولكنهما ظلا يتراسلان طوال السبعة عشر عاما الباقيـــة من حياته . ويبدو أن فلليمير زاد اعتزازا بروجته لأنها فتنت رجلا بهذه الشهرة ، ولأنها عارضت شعر جوته بقصائد لا تقل روعة عن قصائده . وضمن جوته أشعارها وأشعاره فى « الديوان الشرقى الغربى » الذى نشره فى ١٨١٩ .

وبينما هو ماض فى مراسلاته نثرا وشعرا ماتت كرستيانه (٦ يونيو ١٨١٦) . وسجل جوته فى يوميته : « كان صراعها مع الموت رهيبا ... خواء وصمت قاتل فى باطنى ومن حولى . » [٢٩] وران على هذه السنوات اكتئاب عميق . وحين زارته شارلوته كستنر ، حبيبة صباه التى فقدها ، والتى كانت الآن زوجـــة فى الرابعة والستين لعضو المجلس الناجح كستنر الهانوفرى ، فى صحبة ابنتها (٢٥ سبتمبر ١٨١٦) لم يستشعر أى عاطفة تختلج بين جوانحه ، وكان حديثه كله حديثا تافها مجاملا . ولكن فى ١٨١٧ ، تزوج ابنه أوجست من أوتيلييه فون بوجفيش ، بعد أن قطع حياة كلها خلاعة وفسق ، ودعاه جوته ليسكن معه ، وأتت أوتيلييه بمرج الشباب إلى البيت ، وما لبثت أن أعطت الشاعر المسن أحفادا أنبضوا قلبه بالحياة من جديد .

وأعانته على ذلك أولريكه فون لفتزوف ، وكانت إحدى بنات ثلاث

لأماليا فون لفتزوف التى عرفها جوته فى كارلسباد . والتقى فى أغسطس ١٨٢١ بأولريكه فى مارينباد ، وقد قالت فيما بعد مسترجعة ذكرى هذا اللقاء : «لما كنت قد أقمت سنوات فى مدرسة داخلية فرنسية بستراسبورج ، وكنت لا أتجاوز السابعة عشرة ، فإننى لم أسمع قط بجوته ، ولا خطر لى أنه رجل مشهور وشاعر فحل . وعلى ذلك لم أشعر قط بالخجل من السيد العجوز الودود ... وفى غد ذلك اليوم ذاتة طلب إلى أن أتمشى معه ... وكان يصحبنى معه فى نزهته كل صباح تقريبا . » (٣٠) وعاد إلى مارينباد فى ١٨٢٢ ، و « طوال ذلك الصيف أبدى لى جوته غاية الود » . وبعد عام التقيا فى كارلسباد ، وسرعان ما أثارا القيل والقال فى منتجع المياه المعدنية . وكان الشاعر الآن قد قرر أن حبه أكثر من الحب الأبوى . وألح الدوق كارل أوجست على أولريكه فى أن تتزوج جوته ، ووعدها إن فعلت بأن يمنع أسرتها فى فايمار بيتا جميلا ، وأن تحصل بعد موت الشاعر على معاش قدره عشرة آلاف طالر فى العام (٣١) . وفضت الأم وابنتها . وقفل جوته محزونا إلى فايمار ، وأغرق خيبة أمله فى المداد . وعمرت أولريكه حتى أوفت على الخامسة والتسعين .

فى ذلك العام، عام ١٨٢١ الذى قاد جوته لأولريكه ، جاءه فى فايمار كارل تسلتر — مدير الموسيقى فى بينا — بتلميذ فى الثانية عشرة يدعى فيلكس مندلسون . وكان تسلتر قد فتح روح جوته على عالم الموسيقى ، بل أنه علمه التأليف الموسيقى . وأذهلت براعة عازف البيان الصغير الشاعر العجوز وأبهجته ، فأصر أن يمكث معه أياما . وقد كتب فيلكس فى ٦ نوفمبر يقول: « فى كل صباح يقبلنى مؤلف « فاوست » و « فرتر » . وفى العصر أعزف له قرابة ساعتين ، وبعض العزف فوجات من باخ ، وبعضه من ارتجالى . وفى ٨ نوفمبر أقام جوته حفل استقبال ليقدم فيلكس إلى مجتمع فايمار الراقى. وفى ١٠ نوفمبر كتب فيلكس : « فى كل عصر يفتح البيان ويقول : لم أسمعك قط اليوم . تعال وأسمعنى شيئا من الضوضاء . ثم يجلس إلى جوارى ويصغى . لا تتصور كم هو عطوف ودود . » فلما أراد تسلتر أن يرجع فيلكس إلى بينا ، أقنعه جوته بأن يترك تلميذه أياما أخرى . وكتب الصبى

السعيد «وعلت الآن أصوات الشكر لجوته من كل ناحية ، ولثمت أنا والبنات شفتيه ويديه . وطوقت أوتيليه دون بوجفيش عنقه بذراعيها ، ولما كانت جميلة جدا ، وهو يغازلها طوال الوقت ، فقد كان الأثر رائعا » (٣٢) . إن في التاريخ لحظات سعيدة تتوارى خلف درامة المأساه ، وتحت ملاحظة المؤرخين .

٤ — العـــالم

ولنعد الآن إلى سنوات صباه ، حين بدأ بحثه الذى امتد طوال حياته فى العلم ، باهتمام يقظ ولذة تلتهم كل شىء . وقليلون منا من يعرفون أن جوته كرس للبحث والمؤلفات العلمية وقتاً أكثر مما كرس الكل شعره ونثره مجتمعين (٣٣) . وكان قد درس الطب والفيزياء فى ليبزج ، والكيمياء فى ستراسبورج : ثم بدأ دراسة التشريح فى ١٧٨١ ، وظل سنوات يضرب فى أرجاء ثورنجيا جامعاً للعينات المعدنية والنباتيـــة ويرقب التكوينات الجيولوجية . وكان فى أسفاره لايلحظ الرجال والنساء والفن فحسب ، بل الحيوان والنبات والظواهر البصرية والمتيورولوجية أيضا . وقد قام بدور رائد فى إنشاء المختبرات فى يينا . وكان يشتد فرحه بانتصاراته فى العلم أو حزنه بهزائمه فيه ، اشتدادة بنجاحه أو إخفاقه فى الأدب .

وقد استحدث شيئا فى دراسة الطقس . ذلك أنه نظم محطات للرصد الجوى فى دوقية ساكسى — فايمار ، وأعان على إنشاء محطات أخرى فى طول ألمانيا وعرضها (٣٤) ، و أعد التعليمات اللازمة لها . وكتب المقالات فى « نظرية الطقس » و « أسباب تذبذبات البارومتر » وأقنع الدوق كارل أوجست بأن يشرع فى اقتناء المجموعات التى كانت النواة لمتحف علم المعادن فى يينا ، وبعد أن درس الطبقات الجيولوجية فى إلمينا وذهب إلى أنها تؤيد نظرية أبراهام فرنر التى زعمت أن جميع التكوينات الصخرية على القشرة الأرضية نتيجة لفعل المياه البطئ . (ويجب أن تقرن هذه النظرية « النبتونية » بالنظرية «البركانية» التى تقول بالتغيير نتيجة للحركات العنيفة). وكان من أوائل من ألمعوا إلى أن عمر الطبقات قد يقرر من المتحفرات

المطمورة فيها ، ومن دافعوا عن الرأى القائل بأن الجلاميد الهائلة الموزعة الآن توزيعا شاذا فى المرتفعات قد قذفتها هناك موجات من الجليد هابطة من المنطقة القطبية الشمالية(٣٥) .

وفى ١٧٩١ — ٩٢ نشر جوته فى مجلدين « مقالات فى البصريات » ، وكتب يقول « كان هدفى تجميع كل ماهو معروف فى هذا الميدان ، والقيام بكل التجارب بنفسى ، منوعا فيها قدر الاستطاعة ، ميسراً متابعتها ، مراعيا أن تكون فى متناول الشخص العـــادى (٣٦) . وقد أجرى خلال السنوات من ١٧٩٠ إلى ١٨١٠ مالا يحصى من التجارب لتفسير اللون ، وما زال متحف جوته بفايمار يحتفظ بالأدوات التى استعملها . وظهرت الحصيلة فى ١٨٠٠ فى مجلدين كبيرين يحتويان النصوص ، ومجلد للوحات ، تحت هذا العنوان « فى نظرية اللون » . وكان هذا أكبر آثاره عالما .

وقد درس الألوان باعتبارها ناشئة لا عن التركيب الكيميائى للأشياء فحسب ، بل عن تكوين العين وعملها . وحلل تكيف الشبكية للظلام والنور ، وفسيولوجية العمى اللونى ، وظواهر أطياف الون والصور التلوية ، وآثار تناقضات الألوان وتجمعاتها فى الإحساس وفى التصوير . وحسب اللون الأخضر — خطأ — مزيجا من الأصفر والأزرق . (وهما يمتزجان هكذا حقا على لوحة ألوان الرسام ، ولكن حين يتحد الأزرق والأصفر فى الطيف ينتج عنهما الرمادى والأبيض) . وقد أعاد إجراء الكثير من التجارب التى ورد وصفها فى « بصريات » نيوتن (١٧٠٤) ، فوجد فى عدة حالات نتائج تختلف مما ذكر فى ذلك الكتاب ، وخلص إلى اتهام نيوتن بعدم الكفاية وبالغش أحيانا (٣٧) . وقد عارض رأى نيوتن فى أن الون الأبيض تأليف من عدة ألوان ، وذهب إلى أن اتحاد الألوان ينتج عنه بانتظام اللون الرمادى لا الأبيض . ولكن نتائجه لم يقبلها لامعاصروه ولا من أتوا بعده فى ميدان البصريات . فقد اثنوا على تجاربه ورفضوا الكثير من نظرياته . وفى ١٨١٥ أرسل إليه آرثر شوبنهاور مقالا دافع فيه بكفاية عن فكرة نيوتن فى أن الأبيض تأليف من عدة ألوان — وكان شوبنهاور يعجب بجوته شاعرا

وفيلسوفا ؛ ولم يغتفر له الشيخ فعلته قط . وزاد الرفض العام لنظريته فى الألوان سنيه الأخيرة قتاما .

وكان طبعييا لرجل كجوته ، حساس إلى هذا الحد أن يستهويه عالم النبات . فحين زار بادوا فى ١٧٨١ أبهجته الحدائق النباتية ، ففيها وجد مجموعة أغنى وأكثر تنوعا من كل ما رأى فى حياته . وشاهد مدى اختلاف نباتات الجنوب عن نباتات الشمال ، فصمم على دراسة تأثير البيئة على شكل النبات ونموه . كذلك لم يشعر قط بمثل هذا الشعور العميق بقدرة الطبيعة الملغزة العارمة على تطوير كل نوع — بما تفرد به من حيث التركيب والنسيج واللون والخط — من بزور تبدو بسيطة متشابهة . فيالها من خصوبة ، ويالها من قدرة على الابتكار ! ولكن أهناك بعض عناصر مشتركة فى كل تنوع الأفراد ، وفى كل تطور الأعضاء والأجزاء ؟ وخطر له أن هذه الأجناس والأنواع والأشكال هى تحورات من نموذج أصلى أساسى ، وأن هذه النباتات كلها ، مثلا ، شكلت على غرار نموذج أساسى أصيل — حتى وإن كان متخيلا — أو نبات أول ، هو أم النبات جميعا . وكتب إلى هردر يقول « إن هذا القانون ذاته يمكن تطبيقه على كل حى » أى على الحيوانات كما يطبق على النباتات ، فالحيوانات هى أيضا تحورات من أصل بنائى واحد (٣٨) . وكما أن الكائن الحى الفرد ، بكل تفرده ، هو محاكاة لنمط أول ، كذلك قد تكون أجزاء الكائن تحورات لشكل أساسى واحد . ولاحظ جوته فى بادوا تخيله (باسيطة) كانت أوراقها فى مراحل مختلفة من التطور ؛ فدرس مراحل الانتقال المرئية من أبسط ورقة إلى مروحة السعف الكاملة الرائعة ؛ وتصور فكرة مؤداها أن جميع تركيبات النبات — باستثناء المحور أو الساق — هى تحورات ومراحل للورقة(*) .

وبعد عردة جوتة إلى فايمار نشر نظريته فى كتيب من ست وثمانين صفحة عنوانه « محاولة قام بها س . ف . جوته عضو المجلس الخاص لدوقية ساكسى — فايمار ، لتفسير تطور النباتات » (١٧٩٠) .

(*) كان كاسبار فريد ريش فولف قد خلص إلى هذه النتيجة فى ١٧٦٨ .

وضحك علماء النبات من الكتيب وقالوا إنه أحلام شاعر ، ونصحوا الشاعر بأن يلزم حرفته . (٣٩) فلم يكذبهم ، وصاغ آراءه من جديد ، فى قصيدة سماها « تحور النباتات » وتجمعت الأدلة والمؤيدون للنظرية شيئاً فشيئاً .

وفى ١٨٣٠ قدم إتيين جوفروا سانتلير مقال جوته لأكاديمية العلوم الفرنسية ، وأشاد به أثراً من آثار البحث الدقيق والخيال الخلاق يؤيده تقدم علم النبات (٤٠) .

وألمع جوته (١٧٩٠) فى محاولة لتطبيق نظريته على التشريح إلى أن الجمجمة ليست سوى تحور وتتمة للفقرات ، تحتوى المخ كما يحتوى العمود الفقرى على الحبل الشوكى ، وليس هناك اليوم اتفاق على هذه الفكرة . ولكن إنجازاً ذكياً أكيداً يرجع الفضل فيه إلى جوته فى التشريح — وهو إثباته وجود العظمة البينفكية فى الإنسان (وهى العظمة التى تتوسط عظمتى الفك العلوى والتى تحمل القواطع العلوية) . وكان علماء التشريح قد تبينوا وجود هذه العظمة فى الحيوان ، ولكنهم ارتابوا فى وجودها فى الإنسان ، وكان لاكتشاف جوته الفضل فى تضييق الخلاف البنيانى بين الإنسان والقرد .

استمع إلى الشاعر يعلن نجاحه فى خطاب من بيتا إلى شارلوته فون‌شتين مؤرخ ٢٧ مارس ١٧٨٤ — العاشق والعالم ممتزجين معاً : « سطور إلى حبيبتى لوته ، أقرئها تحية الصباح ... لقد منحت شعوراً بالرضى يهجى . ذلك أنى اهتديت إلى كشف تشريحى جميل وهام فى وقت معاً . وسيكون لك نصيبك فيه ، ولكن لا تنبسى بكلمة عنه » . (٤١) وأذاع كشفه فى مقال خطى أرسله إلى مختلف العلماء فى ١٧٨٤ بعنوان « محاولة قائمة على علم العظام المقارن ، لإثبات أن العظمة البينفكية فى الفلك الأعلى يشترك فيها الإنسان والحيوانات العليا » وكانت هذه «أول رسالة كتبت من قبل يمكن أن توصف بحق بأنها تدخل فى باب التشريح المقارن ، وهى إذن معلم فى

تاريخ هذا العلم »[٤٢] (وقد نشر المشرح الفرنسى فيلكس فيك دازير هذا هذا الكشف ذاته فى السنة نفسها ١٧٨٤) .

كتب جوته فى رسالته: « أن الانسان شديد الشبه بالحيوان الأعجم ... فكل مخلوق إنما هو نغمة أوتحوير فى تآلف ألحان عظيم »[٤٣] وقد ذهب كثيرون من العلماء والفلاسفة الذين سبقوه إلى أن الإنسان جزء من مملكة الحيوان ونظم قصيدة سماها « تطور الحيوانات » ولكنه لم يكن من دعاة التطور بالمعنى الداروينى . فقد افترض ثبات الأنواع اتباعاً لمذهب نيمايوس، وهكذا لم يكن « النبات الأول » الذى قال به نباتاً بدائياً فعلياً تطورت منه جميع النباتات ، إنما كان مجرد نمط عام كانت كل النباتات تحويرات له ، ولم يكن رأيه كرأى معاصريه لامارك وإرازمس دارون فى أن الأنواع متطورة من أنواع أخرى بالانتخاب البيئى لأشكال واحدة .

فهل كان جوته عالماً حقيقياً ؟ ليس بالمعنى الاحترافى . لقد كان هاوياً غيوراً مستنيراً ، وعالماً بين القصائد والروايات والغراميات والتجارب الفنية والواجبات الإدارية .

وقداستخدم أجهزة كثيرة وجمع مكتبة علمية كبيرة ، ولاحظ ملاحظات مفيدة وتجارب دقيقة وشهد لمهولتز بالدقة الواقعية للعمليات والتجارب الموضوعية التى وصفها جوته[٤٤] . وقد تجنب التفسيرات الغائية . ولكن العلماء المحترفين لم يقبلوه عالماً ، لأنهم نظروا إليه هاويا يعتمد على الحدس والفرض بثقة مفرطة . وكان ينتقل بسرعة أكثر مما ينبغى من موضوع أو تحقيق إلى آخر لامسا كلا منها نقطة خاصة ، دون أن يبلغ فى أى منها مسحا للميدان فى إلا فى البصريات ونظرية اللون . ولكن كان هناك شئ مثالى وبطولى فى إصراره المتشعب المتعدد الأشكال . وقال إكرمان فى ١٨٢٥ : « سيبلغ جوته عامه الثمانين بعد بضع سنوات ، ولكنه لم يكل من الأبحاث والتجارب ، فهو لا يفتأ جاداً فى أثر تأليف كبير »[٤٥] . وربما كان الشاعر محقا فى رأيه أن الهدف الأكبر للعالم ينبغى ألا يكون إمداد الرغبات القديمة بأدوات جديدة ، بل توسيع الحكمة بالمعرفة فى سبيل إثارة الرغبة .

٥ — الفيلسوف

كان فى الفلسفة ، كما كان فى العلم ، عاشقاً لا أستاذاً محترفا — مع أنه صاحب الفضل فى تعيين فشته وشيلنج وهيجل فى كراسى الفلسفه بيينا . وكان قليل الاهتمام جداً بجدليات المذاهب الفلسفية ، ولـكنه كان معنيا أشد العناية بتفسير الطبيعة ومعنى الحياة. وكلما تقدم به العمر بات بفضل العلم والشعر حكيما ، وقد وجد الأنارة عن « الكل » من كل شىء ، وكل لحظة ، وكل جزء : « كل عابر ليس إلا رمزاً » (٤٦) و « الأقوال المأثورة العارضة » التى خلفها عند موته دون أن تطبع ، تنضح بالحكمة فى كل صفحة .

ولم يقدم أى نسق منطقى ، ولكنه ألمع ، براجماتيا إلى « أنه لا حقيقى إلا ما هو مثمر » (٤٧) وإلى أنه « فى البدء كان الفعل (لاالـكلمة) » (٤٨) فنحن نجد الحقيقة فى الفعل أكثر مما نجدها فى الفكر ، وينبغى أن يكون الفكر أداة للعمل ، لابديلا عنه . ولم يولع بكانط كما أولع به شيلر ، فقد اعترف بأن الطبيعة النهائية للحقيقة تتجاوز علمنا ، ولكنه لم يشعر أن هذا يلزمه بسنية العقيدة ، بل على العكس أوصى بتجاهل ما لايمكن معرفته ، « إن مالا سبيل إلى سبر أغواره ليست له قيمة عملية » ، والعالم المحسوس كاف لحياتنا (٤٩) ولم تساوره أى ريب أو مخاوف معرفية حول الاعتراف بوجود عالم خارجى . كتب لشيلر بعد أن قرأ كانط وشيلنج يقول « أنى أسلم مختاراً بأن ماندركه حسيا ليس الطبيعة (فى ذاتها) ، بل إن الطبيعة تفهم طبقاً لصور وملكات معينة لفكرنا .... ولكن توافق طبائعنا العضوية مع العالم الخارجى . . . (يدل على) تصميم من الخارج ، وعلاقة نحو الأشياء » (٥٠) « وكثيرون يقاومون الاعتراف بالحقيقة ، لاشىء إلا لأنهم لو قبلوه لانهاروا » (٥١) .

ولـكن جوته رفض المادية رفضه للمثالية الذاتية . وقال إن « مذهب الطبيعة » الذى قال به دولباخ « بدا لنا [نحن الطلاب فى ستراسبورج] شديد القتام . . . رهيبا كالموت ، حتى لقد وجدنا فى إطلاقة وجوده عناء ونكدا ، وكنا نرتعد فرقا منه كأنه عفريت » . (٥٢) كان هذا فى شبابه ،

ولـكنه أحس به أيضاً فى شيخوختـــه وهو يكتب إلى كنيبل فى ٨ ابريل ١٨١٢ :

« إن الرجل الذى لايدرك هذه الحقيقة : ولا يسمو إلى هذه الرؤية ، وهى أن الروح والمادة ، للنفس والجسد ، الفـــكر والامتداد ، ... إنما هما مقوما الكون التوأمان الضروريان ، وسيظلان كذلك أبد الدهر ، وإن لهذين الاثنين حقوقا متساوية ، ومن ثم يمكن اعتبارهما فى وجودهما معاً ممثلين لله ؛ أقول أن رجلالايدرك هذا خير له أن ينفق عمره فى ثرثرة أهل الدنيا ولغوهم الفارغ .

وهذا بالطبع هو سبينوزا ، وجوته يتبع سبينوزا إلى الحتمية — «نحن ننتمى إلى قوانين الطبيعة ، حتى أن تمردنا عليها [٥٣] ، ولكنه أحيانا يميل إلى الاتفاق مع كانط على أن « حياتنا ، مثلها مثل الكون الذى ننتمى إليه ، تتألف على نحو ملغز من الحرية والضرورة . » [٥٤] وكان يشعر بقوة قضاء وقدر تعمل فيه — صفات تفرض نمره وتقرره ، ولكنه يتعاون معها ، كما يتعاون عامل حر يخدم قضية تحركه وتحتويه .

أما دينه فتجميد للطبيعة ، ورغبة فى التعاون مع قواها الخلاقة — قدرتها الإنتاجية المتعددة الأشكال ومثابرتها العنيدة ؛ على أنه استغرق زمناً طويلا ليكتسب صبرها . وقد شخص « الطبيعة » على نحو مبهم ، فرأى فيها فكراً وإرادة ، ولكنه فكر يختلف تماماً عن فكرنا ، وإرادة محايدة فى غير اكتراث كأنها تحايد بين ناس وبراغيث . فليس للطبيعة مشاعر أخلاقية بالمعنى الذى نقصده من التزام الجزء بالتعاون مع الكل ، لأنها « هى» الكل . وفى قصيدته « الإلهى » (١٧٨٢) وصف جوته الطبيعة بأنها بغير شعور ولا رحمة . فهى تدمر كما تعمر بإسراف . «كل مثاكم العليا ان تمنعنى (جوته) من أن أكون أصيلا ، صالحاً وطالحاً ، كالطبيعة » [٥٥] ، ومبدؤها الأخلاقى الوحيد هو : عش واجعل غيرك يعيش . وقد سلم جوته بحاجة كثير من النفوس إلى سند فوق طبيعى ، ولكنه لم يشعر بمثل هذه الحاجة إلا فى أخريات عمره. « من عنده الفن أو العلم فهو يملك (ما يكفى من)

الدين ؛ أما من ليس عنده فن أو علم فهو فى حاجة إلى الدين » [٥٦] . انى بصفتى شاعراً وفناناً أشعر بتعدد الآلهة (فأشخص قوى الطبيعة المنفصلة) ، أما فى دورى عالماً فأناأميل إلى الحلولية (أىأرى إلهاً واحداً فى كل شىء)[٥٧]

وإذا كان « وثنياً ثابتاً عامداً » فى الدين والأخلاق ، فقد خلا من الإحساس بالخطيئة ، ولم يشعر بحاجة إلى إله يموت كفارة عنه ، [٥٨] وأنكر كل حديث عن الصليب . وقد كتب إلى لافاتر فى ٩ أغسطس ١٧٨٢ يقول « لست عدواً للمسيحية ، ولا مضاداً لروح المسيحية ، ولكنى قطعاً لا — مسيحى . . . أنك تقبل الإنجيل ، كما هو ، على أنه حقيقة إلهية . حسناً ، ما من صوت مسموع من السماء يمكن أن يقنعنى بأن امرأة يمكن أن تحبل بطفل دون رجل ، وأن رجلا ميتاً يقوم من قبره . وأنا أعد هذه كلها تجديفات على الله وعلى إعلانه ذاته فى الطبيعة » [٥٩] . وضيق عليه لافاتر الخناق (كما يروى لنا جوته) و « أخيراً سألنى السؤال العسير » إما مسيحى وأما ملحداً « فصارحته بأنه ان لم يترك لى مسيحيتى كما اعتززت بها إلى ذلك الحين ، ففى استطاعتى أن أنحاز دون تردد إلى صف الإلحاد ، خصوصاً وأننى أرى أنه ما من إنسان يعرف على التحديد المعنى المقصود من كل من هذين اللفظين » [٦٠] . وقد ذهب جوته إلى أن « الدين المسيحى ثورة سياسية جهيضة انقلبت أخلاقية » [٦١] وفى الأدب « مئات الصفحات التى فيها من الجمال والفائدة ، مثل ما فى الأناجيل [٦٢] ، ومع ذلك أعد الأناجيل الأربعة كلها حقيقية لا غبار على صحتها ، ففيها يتجلى البهاء المنعكس للقوة السامية التى انبثقت من شخص المسيح وطبيعته ، الذى كان إلهياً ماظهرت الألوهية فى الأرض . . . وأنا أنحنى أمامه بوصفه المظهر الإلهى لأسمى مبدأ للفضيلة » [٦٣] . ولكنه اعتزم أن يعبد الشمس كما يعبد المسيح ، باعتبارها مظهراً معادلا من مظاهر القوة الإلهية [٦٤] .. وقد أعجب بلوثر ، وامتدح حركة الإصلاح البروتستنتى لتخطيها أغلال التقاليد ، ولكنه أسف على انتكاسها إلى العقائدية المتزمته [٦٥] . وخامره شعور بأن البروتستنتية ستعانى من افتقارها إلى المراسم الملهمة المكونة للعادات ، ورأى أن الكاثوليكية

حكيمة سمحة فى رمزها للعلاقات والتطورات الروحية بالأسرار المقدسة البالغة الوقع فى النفوس [٦٦] .

أما آراء جوته فى الخلود فقد تغيرت مع السنين . ففى ٢ فبراير ١٧٨٩ كتب إلى فريدريش تسو شتولبرج يقول . « أما أنا فأتمسك بوجه عام بتعاليم لوكريتيوس ، وأقصر نفسى وكل آمالى على هذه الحياة » . ولكنه فى ٢٥ فبراير ١٨٢٤ قال لاكرمان « لا أريد اطلاقاً أن أستغنى عن سعادة الأيمان بحياة مستقبلة ؛ والحق انى أقول مع لورنتسودى مديتشى ان الذين لا رجاء لهم فى حياة أخرى هم موتى حتى فى هذه الحياة » ؛ وفى ٤ فبراير ١٨٢٥ ، «انى راسخ الاقتناع بأن روحنا شىء لايقبل الفناء اطلاقاً » [٦٧] . وقرأ زفيد نبورج ، وقبل فكرة عالم الروح [٦٨] ، وداعب آمال تقميص الأرواح . ودرس القبلانية وبيكوديللا ميراندولا ، بل رسم البروج أحياناً لكشف الطالع [٦٩] . وكلما تقدم به العمر ازداد تسليمه بما للإيمان من حقوق .

« إذا توخيت الدقة فى التعبير ، قلت إنه لايمكننى أن أصل إلى معرفة لله إلا المعرفة التى أستقيها من الرؤية المحدودة المتاحة لمدركاتى الحسية على هذا الكوكب المفرد . ومعرفة كهذه إنما هى شظية من شظية . ولست أسلم أن هذه المحدودية ، التى تصدق على ملاحظتنا للطبيعة ، يجب أن تصدق فى ممارسة الإيمان . فالعكس هو الصحيح . ولعل معرفتنا ، وهى ناقصة بالضرورة ، تتطلب الإضافة والاستكمال بفعل من أفعال الإيمان »[٧٠] .

وفى ١٨٢٠ أسف على تأليفه « برومثيوس » المتمرد أيام شبابه ، لأن شباب المتطرفين يومئذ كانوا يستشهدون به ضده [٧١] . وقد انصرف عن فشته حين اتهم فشته بالإلحاد [٧٢] . وكان رأيه الآن « انه من واجبنا ألا نخبر غيرنا بأكثر مما فى قدرتهم تلقيه . فالإنسان لا يفهم إلا ما يناسبه » [٧٣] .

وكما تغيرت آراؤه فى الدين ، كذلك تغير مفهومه للأخلاق مع تقدم عمره . فحين كان يظفر بنشاط الشباب وكبريائه فسر الحياة بأنها ليست سوى

مسرح لتنمية الذات والظهور . « ان هذه الرغبة الملحة فى أن أرفع ما استطعت هرم حياتى الذى أعطيته وأرسيت قاعدته لى ، ترجح كل ما عداها ، ولا تكاد تسمح بلحظة انتكاس »(٧٤) . وقد رأيناه يجرح نفوساً رقيقة فى هذه العملية . ولكنه حين نضج بفضل المنصب السياسى أدرك أن الحياة البشرية عملية تعاونية ؛ وأن الفرد إنما يحيا بالمساعدة المتبادلة ؛ وأن الأفعال الأنانية — وان ظلت القوة الأساسية — إلا أنه لا بد من أن تحد حاجات الجماعة . ففاوست فى قسمها الأول هى النزعة الفردية متجسدة ؛ وفى قسمها الثانى يجد « الخلاص » وسلامة الروح ، بالعمل للصالح العام . وفلهم مايستر فى « تلمذته » يحاول تعليم ذاته وإنماءها وإن كان بحكم طبيعته وتدريبه كثيراً ما يعين اخوانه ؛ وفى « تطويفاته » يحاول تحقيق المزيد من سعادة المجتمع . وقد غض جوته من الوصية بمحبة الأعداء، ولكنه عرف النبل بنبل فى قصيدة من أروع قصائده :

« ليكن الإنسان نبيلا
معيناً وطيباً
فذلك وحده
هو الذى يميزه
عن سائر الكائنات
التى نعرفها . . .
ان الطبيعة
مجردة من العواطف
تشرق شمسها
على الأشرار والأبرار ،
ويضىء القمر والنجوم
على الصالحين والطالحين .
والرياح والسيول ،
والرعد والبرد ،

تهدر في طريقها ،
تنتزع وتكتسح أمامها
واحداً بعد واحد . . .
ولا مناص لنا كلنا بحكم القوانين
العظمى ، الأبدية الصارمة ،
من أن نكمل دورة وجودنا .
ولكن الإنسان وحده
يستطيع المحال ،
فهو يميز ،
ويختار ، ويحكم ؛
ويستطيع أن يطيل مكث
اللحظة العابرة .
هو وحده القادر على
ان يثيب الخير ،
ويعاقب الشر ،
ويشق وينقذ ،
ويصدق النصح
للخطاة والضالين
فليكن الإنسان النبيل
معيناً وطيباً .

ولكي يكون الإنسان نبيلا عليه أن يحذر المؤثرات المفسدة ، و « الكل مؤثر إلا ذواتنا » (٧٥) . « دعك من دراسة المعاصرين والذين يحاربونك ؛ بل أدرس عظماء الماضى الذين احتفظت آثارهم بقيمتها ومكانتها قروناً . فالرجل الموهوب حقاً ينحو هذا النحو بحكم طبيعته ، والرغبة فى التنقيب في أعمال الأسلاف العظام علامة صادقة على الموهبة السامية »،(٧٦) وعليك باحترام المكتبات وإجلالها لأنها التراث الذى خلفه هؤلاء الرجال . « ان

المرء حين يتأمل مكتبة ما يشعر كأنه فى حضرة رأس مال هائل يأتى فى صمت بفائدة لاتقدر »[٧٧] . ولكن الفكر بغير الخلق أسوأ كثيراً من الخلق بغير الفكر ، « فكل ما يحرر العقل دون أن يمنحنا السيطرة على أنفسنا مؤذ »[٧٨] . خطط لحياتك ، ولكن حاول الموازنة بين الفكر والعمل ؛ فالفكر بغير العمل مرض . « فلأن تعرف حرفة وتمارسها يزودك بثقافة أكثر مائة مرة من نصف المعرفة »[٧٩] . « وما من بركة تعدل بركات العمل »[٨٠] وفوق كل شىء كن « كلا » أو انضم إلى كل « أن النوع الإنسانى وحده هو الإنسان الحق ، ولا يستطيع الفرد أن يفرح ويسعد إلا إذا امتلك شجاعة الشعور بنفسه فى الكل »[٨١] .

وهكذا نرى الفنى الذى ورث أسباب الرغد والأمن ، والذى أضحك طلاب ستراسبورج على لباسه المترف الغريب ، قد تعلم بفضل الفلاسفة والقديسين وتجارب الحياة أن يفكر فى الفقراء بعطف ، وأن يتمنى لو تقاسم المحظوظون من الناس ثرواتهم مع الفقراء بسخاء أكثر . وينبغى أن تفرض الضرائب على النبلاء بنسبة دخولهم ، وأن يتيحوا لاتباعهم الإفادة من « المنافع التى تهيئها المعرفة والرجاء المتزايدان »[٨٢] وقد أحس جوته بما يحس به البورجوازيون من حسد لأصحاب النبالة بالميلاد حتى بعد أن طبق صيته آفاق أوربا . « فى المانيا لاتتاح فرصة الحصول على . . . ثقافة شخصية مكتملة الجوانب للنبـــلاء »[٨٣]. وكان يراعى جميع فروض الاحـــترام المألوف فى سلوكه مع رؤسائه . وكل الناس يعرفون ما وقع لجوته وبيتهوفن فى تبلتز ، فى يوليو ١٨١٢ ؛ ولكن المصدر الوحيد لهذه القصة هو بتينا برنتانوفون آرنيم ، غير الموثوق بروايتها ، التى ادعت أنها تنقل عن رواية بيتهوفن :

« يستطيع الملوك والأمراء حقاً أن يخلعوا الألقاب والأوسمة ، ولكنهم لا يستطيعون أن يصنعوا عظماء الرجال الذين يجب إذن النظر إليهم بإجلال . وحين يجتمع اثنان مثل جوته ومثلى ، فلا بد لهؤلاء السادة من ذوى الحسب

والنسب أن يفقهوا معنى العظمة عند أمثالنا . فبالأمس التقينا بالأسرة الامبراطورية (النمساوية) كلها ، وخلص جوته ذراعه من ذراعى ليقف جانباً . أما أنا فكبست قبعتى على رأسى واخترقت الجمع فى أكثف نقطة وذراعاى تتدليان على جانبى . واصطف الأمراء وأفراد الحاشية فى صفين ، ورفع دوق فايمار قبعته لى ، وحيتنى الامبراطورة أولا . وقد أضحكنى أن أرى الموكب يمر أمام جوته الذى وقف على جنب وقبعته فى يده . وقد عنفته بعدها بقسوة على ما أتاه (٨٤) .

وسيختلف انفعالنا بهذه القصة باختلاف عمرنا . فلقد شعر جوته بأن الارستقراطية العاملة بنشاط وبروح خدمة الجماعة تهيىء خير الحكومات الممكنة آنئذ فى أوربا ، وتستحق الاحترام الواجب للنظام والضبط الاجتماعيين . وينبغى اصلاح المفاسد ، ولكن فى غير عنف أو اندفاع ؛ فالثورات تكلف أكثر مما تساوى ، وتنتهى عادة إلى حيث بدأت . ومن ثم يقول مفستوفيليس لفاوست :

« وا أسفاه ! إليك عنى ! كف عن الثرثرة حول ذلك الشجار بين الطغيان والرق ! انه يضايقنى . فما إن ينته حتى يبدأ من جديد مع المهزلة كلها » (٨٥) .

ومن ثم يقول جوته لأكرمان فى سنة ١٨٢٤ : « صحيح انى لم أكن صديقاً للثورة الفرنسية . فلقد كانت أهوالها عاجلة جداً . . . على حين لم تكن آثارها النافعة منظورة بعد . . . ولكننى بالمثل لم أكن متعاطفاً مع الحكم التعسفى الذى سبقها . وكنت حتى فى ذلك الوقت مقتنعاً بأنه ما من ثورة هى غلطة الشعب . بل هى دائماً غلطة الحكومة » (٨٦) . وقد رحب بنابليون نعمة على النظام فى فرنسا وأوربا بعد عقد حفل بالاضطرابات . وكان يتشكك فى الديمقراطية لأنه « ما من شىء أسوأ من الجهل النشيط »(٨٧)، و « محال أن نتصور أن الحكمة يمكن أن تكون فى يوم من الأيام صفة شعبية » (٨٨) .

ثم سخر من تذبذب الاطان بين الأحزاب . « أن الناس يتقلبون فى

السياسة كما يتقلبون على فراش المرض من جنب إلى جنب أملا فى مزيد من الراحة فى رقادهم »(٨٩) . وقد عارض حرية النشر بحجة أنها تعرض المجتمع والحكومة للإزعاج المستمر على يد كتاب يعوزهم النضج والشعور بالمسئولية . وبدت له الصرخة المطالبة بالحرية ، فى أواخر عمره ، مجرد جوع المحرومين من المناصب للسلطان والمغانم . « ان الهدف الأوحد هو نقل القوة والنفوذ والثراء من يد إلى اليد التالية . وما الحرية إلا كلمة السر التى يهمس بها المتآمرون المتسترون ، وصيحة المعركة الصاخبة يصيح بها الثوار السافرون ، لا بل شعار الاستبدادية ذاتها وهى تسوف جماهيرها الخاضعة على العدو واعدة إياها بالخلاص من الطغيان الخارجى إلى الأبد »(٩٠) .

لقد وفى جوته كل الوفاء بواجب الكبار ، بقيامه بوظيفة الكابح لطاقة الصغار .

٦ — فاوست : الجزء الثانى

ولقد سكب فلسفته التى تقدم بها العمر فى الجزء الثانى من فاوست . ففى خاتمة الجزء الأول كان قد ترك « نفسه الثانية » ، محطمة يائسة ، فى قبضة مفستوفيليس — الشهوة تعاقب على افراطها . ولكن ، أكان ممكناً أن يكون هذا كل شىء ، وأن يكون جماع الحكمة ؟ ان فاوست لم يكن قد خسر رهانه كل الخسران ، فالشيطان لم يعثر له بعد على أية متعة تهدىء نضاله وتملأ حياته . فهل ثمة أشباع كالذى يتوق إليه فى أى مكان ؟ لقد كافح جوته طوال أربعة وعشرين عاماً ليجد للقصة تتمة وقمة تحويان أو ترمزان إلى النتائج التى خلص إليها تفكيره ، وتسبغان على بطله خاتمة نبيلة ملهمة .

وأخيراً ، وحين بلغ الثامنة والسبعين ، تصدى للمهمة . ففى ٢٤ مايو ١٨٢٧ كتب إلى تسلتر الذى شاخ كما شاخ هو وكان مزمعاً أن يموت معه : « أود أن أعترف لك فى هدوء . . . بأننى عاودت العكوف على فاوست . . فلا تخبر بذلك أحداً » . وكانت خاتمة بايرون المثيرة فى حرب اليونان التحريرية

قد حركت مشاعر جوته ؛ فالآن يستطيع أن يجعـــل بايرون ، فى شخص « يوفوريون » (ومعناه السعادة) ، بن فاوست وهيلانة يمثل شفاء العقل العصرى ، الممزق الحائر ، بفضل اتحاده مع جمال اليونان القديمة الهادىء . ومن ثم راح يكد ويكدح فى ساعات الصباح ، فلا يبلغ من ذلك غير صفحة واحدة على أحسن تقديره ، حتى أفضى لأكرمان فى أغسطس ١٨٣١ ، قبل موته بسبعة شهور ، بأن المهمة المضنية قد تمت — بعد أن انقضت تسع وخمسون سنة على تصوره إياها أول مرة . وكان قد كتب يقول « أسعد الناس من استطاع وصل نهاية حياته ببدايتها »[٩١] . وقال الآن « أيا كان مقدار ما بقى لى من الحياة فنى وسعى أن أعده منذ الآن منحة ، ولست فى الحق أبالى ان كنت سأنجز فوق ما أنجزت أم لا »[٩٢] .

ولا يستطيع المرء أن يسترسل اليوم فى قراءة كل الجزء الثانى من فاوست إلا فى ثقة واطمئنان أعوام ثمانين . فابتداء من المنظر الافتتاحى الذى يصف فيه فاوست ، بعد استيقاظه بين حقول الربيع ، شروق الشمس ببلاغة لم تبل جدتها ، تقف حركة القصة المرة بعد المرة للتغزل فى جمال الطبيعة أوالتغنى بعظمتها أو رهبتها ؛ وقد أجاد المؤلف الوصف . ولكنه أسرف فيه ؛ فجوته المبشر بالانضباط الكلاسيكى يأثم هنا ضد شعار « القصد فى القول » . ذلك أنه صب فى الدراما كل شىء تقريباً تراكم بغير نظام فى ذاكرته الجياشة : الميثولوجيات اليونانية والألمانية ، وليدا والبجعة ، وهيلانة وركبها ، والساحرات ، والفرسان ، والجنيات ، والأقزام والحيوانات الخرافية ، والأقزام البشرية ، وحوريات الغاب ، والسيرانات ، ومقالات الجيولوجية « النبتونية » ، والخطب الطويلة يلقيها الرســـل ، والفيات بائعات الزهر ، وحوريات الحـــدائق ، والحطابون ، — والمهرجون القصار السمان ، والسكارى ، وأتباع الفرسان ، ووكلاء الإقطاعيين ، والنظار ، ثم سائق مركبة حربية وأبو هول ، ومنجم وإمبراطور ، وآلهة الحقول وفلاسفة ، وكراكى أبيكوس ، و« رجل قصير » (قزم) صنعه فجنر تلميذ فاوست كيميائياً. والخليط أشد تحيراً وإرباكاً من الدغل المدارى ،

لأنه يضيف العنصر فوق الطبيعى إلى الطبيعى ، ويسبغ على كل شىء موهبة الخطابة أو الغناء .

وما أعظم الراحة التى نستشعرها حين نظهر هيلانة فى الفصل الثالث ، وهى ما تزال على نحو معجز إلاهة بين النساء ، تغزو قلوب الرجال برشاقة حركتها أو بلحظ عينيها . وتتخذ القصة قوة جديدة ، ويرتفع الكورس إلى نبرة سوفوكلية ، حين تسمع هيلانه ان منيلاوس رغبة فى عقاب « الجمال الوقح المتغطرس » أمر بأن تسلم هى ووصيفاتها إلى شهوات قبيل « بربرى» يغزو بلاد اليونان من الشمال . أما زعيمهم ففاوست نفسه ، الذى انقلب بحيلة مفستوفيلية فارساً من فرسان العصور الوسطى ، مليح القد والصورة واللباس . ويبلغ جوته ذروة فنه الدرامى حين يصف لقاء هيلانه وفاوست — اليونان القديمة تواجه ألمانيا الوسيطة . فليتحد الإثنان ! تلك هى الفكرة الرئيسية فى القصة . ويفتتن فاوست ككل الرجال فيلقى عند قدمها بكل ما وهبه السحر والحرب من مال وقوة . وتستسلم هى لتوسلاته ، فهذا المصير على أى حال لم يكن شراً من الموت . ولكن منيلاوس يقترب مع جيشه فيقطع عليهما نعيمهما . وفى لمح البصر ينقلب فاوست من الغرام إلى الحرب ، ويستنفر رجاله ويقودهم إلى غزو اسبرطه (وهذه ذكرى « الفرنجة» يغزون المورة فى القرن الثالث عشر) .

ثم يتغير المشهد ، فقد مرت السنون سراعاً ، وإذا يوفوريون شاب سعيد يشرح صدر فاوست وهيلانه بـ« العناق والمزاح اللعوب والنداءات المرحة » [٩٣] . قافزاً فى استهتار من جرف إلى جرف ، وأبواه يحذرانه فى رفق ، راقصا فى عنف مع الحوريات اللائى افتتن بحسنه (بايرون فى إيطاليا) ، ويمسك بواحدة منهن فى جذل ، فإذا هى تنفجر مشتعلة بين ذراعيه . وحين يسمع فى ترحيب ناقوس الحرب يدق ، يندفع خارجاً ، فهوى من منحدر قائم ، ويدعو أمه وهو يموت لتلحق به فى العالم السفلى .

« هيلانه (لفاوست) ويلاه ! ان حكمة قديمة يتحقق فى صدقها — فزفاف المال إلى الجمال لا يدوم أبدا . ان رباط الحياة يتمزق كما يتمزق

رباط الحب ، فوداعاً لهما جميعاً وأنا أبكيهما فى عذابى ، وعلى صدرك أرتمى مرة أخرى ، فتلقينى يا برسيفونى أنا ووالدى . (تعانق فاوست ؛ ويتلاشى جسمها وتبقى الثياب والنقاب بين ذراعيه) » .

وهكذا يختتم الفصل الثالث ، وهو أجمل فصول هذا الجزء الثانى من فاوست . وهو الجزء الذى بدأ جوته بكتابته ، وسماه « هيلانه » ، وظل حيناً يفكر فيه على أنه كل كامل قائم بذاته ؛ ولو تركه كذلك لكان خيراً له . فهنا ارتفع جوته لآخر مرة إلى قمة شعره بجهد بطولى لاستنهاض ما بقى له من قوى ، مازجا الدراما بالموسيقى كما جرى اليونان على عهد بركليس ، نافخاً الحياة والحرارة فى شخوص قصة رمزية معقدة لشفاء العقل العصرى.

ومن ذلك العلو الشاهق ينزلق الجزء الثانى من فاوست إلى حرب بين امبراطور وغريم ينافسه على العرش الرومانى المقدس . ويحقق فاوست ومفستوفليس بحيلهما السحرية النصر فى الحرب للإمبراطور ؛ ويطلب فاوست وينال جزاء له مساحات كبيرة من ساحل الامبراطورية الشمالى ، مضافاً إليها ما يسعه انتزاعه من الأرض من براثن البحر . وفى الفصل الخامس نرى فاوست وقد بلغ المائة سيدا على ملك شاسع ، ولكنه لم يصبح بعد سيداً على نفسه . وذلك أن كوخاً لزوجين من الفلاحين هما فليمون وباوكيس يحجب المنظر من قصره ؛ فيعرض عليهما بيتاً أفضل فى موقع آخر ، ولكنهما يرفضان ؛ فيطلب إلى مفستوفيليس وعملائه أن يطردوهما ؛ ولكنهم يلقون المقاومة ، فيشعلون النار فى الكوخ ؛ ويموت الزوجان العجوزان رعباً . ولا يلبث فاوست أن تطوف به رؤى الأرواح المنتقمة ٥ عجائز شمطاوات اسمهن الفقر ، والذنب ، والهم ، والحاجة ، والموت ٥ وينفخ الهم فى وجهه فيعميه . وتنتشله من اليأس فكرة فيها شىء من الإيثار ؛ فيأمر مفستوفيليس وشياطينه بأن يقيموا السدود على البحر ، ويجففوا المستنقعات ، ويبنوا على الأرض الجديدة ألف بيت وسط الحقول الخضراء ؛ ويتخيل هذه الأرض المنتزعة من البحر ، ويشعر بأنه ان استطاع « مع شعب حر أن يقف على أرض حرة » لقال أخيراً لهذه اللحظة العابرة « لاتبرحى لأنك جميلة جداً » (٩٤) . ويسمع أصوات الفؤوس والمعاول ، فيظن

أن مشروعه الضخم يتقدم ؛ أما الحقيقة فهى أن الشياطين تحفر قبره . ويأخذ منه الإرهاق كل مأخذ ، فيخر صريعاً على الأرض ؛ فيشمت فيه مفيستو فيليس بينمايتهيأ حشد من الشياطين لحمل روح فاوست إلى الجحيم ؛ ولكن جيشاً من الملائكة ينقض من السماء ، وبينما يتسلى مفستوفيليس بالإعجاب بسيقانهم ، يرفع الملائكة رفات فاوست . وفى السماء نرى فاوست الذى ألبس جسداً نورانياً تستقبله بالتحية جريتشن الممجدة الآن ، والتى تتوسل إلى الأم العذراء قائلة : « هبينى أن أعلمه ! » وتأمرها العذراء بأن تقوده صعداً ، ويختتم كورس سحرى المسرحية بهذا النشيد :

« كل عابر
ليس إلا رمزاً ؛
وكل ناقص لم يكمل
يبلغ الكمال هنا »
وما لا يمكن وصفه
يتحقق ها هنا
السرمدى الأنثوى
يجذبنا صعداً وقدماً .

٧ — التمام : ١٨٢٥ — ١٨٣٢

فى ١٨٢٣ أصبح يوهان بيتر إكرمان ، البالغ واحداً وثلاثين عاماً ، سكرتير جوته ، وبدأ يدون حديث الشيخ للأجيال القادمة وتحتوى حصيلة هذا الجهد « أحاديث مع جوته » (ثلاثة مجلدات ١٨٣٦ — ٤٨) ، التى راجعها جوته جزئياً ؛ من ذخائر الحكمة أكثر مما نجده عند معظم الفلاسفة .

وفى سبتمبر ١٨٢٥ احتفلت فايمار بالذكرى الخمسين لتولى كارل أوجست العرش وحضر جوته الاحتفال . وأمسك الدوق بيده وتمتم قائلا له معاً إلى آخر نسمة »[٩٥] . وفى ٧ نوفمبر احتفل البلاط بالذكرى الخمسين

لقـــدوم جوته إلى فايمار ، وأرسل إليـه الدوق خطاباً أذيع أيضاً على الشعب :

« ببالغ السرور أود أن أنوه بالذكرى الخمسينية لهذا اليوم يوبيلا لا للخادم الأكبر لدولتى فحسب ، بل لصديق صباى الذى رافقنى طوال تقلبات الحياة بثابت المحبة والولاء والوفاء . وإنى لمدين فى نجاح أهم مشروعاتى لمشورته الواعية ولتعاطفه الذى لاينى وخدمته النافعة . وإنى لأعد ضمى اياه لشخصى بصفة دائمة مفخرة من أعظم مفاخر ملكى (٩٦) .

ثم أقبلت سنوات الشيخوخة الحزينة حين يختفى الصديق تلو الصديق ؛ ففى ٢٦ أغسطس ١٨٢٦ ، بعد عيد ميلاد جوته السابع والسبعين بيومين ، أرسلت شارلوته فون شتين ، وهى فى الرابعة والثمانين ، آخر ما نعرف من رسائل لحبيبها منذ نصف قرن : « كل تمنياتى الصادقة وبركاتى بمناسبة هذا اليوم . وأتوسل إلى الملائكة الحارسة فى المحفل السماوى أن تأمر بمنحك أيها الصديق الأعز كل خير وجميل . وإننى مازلت المخلصة لك فى رجاء وبلا خوف ، وأنا أسألك أن تهبنى عطفك السمح خلال الفسحة القصيرة التى بقيت لى فى الأجل »(٩٧) . ثم ماتت فى ٦ يناير ١٨٢٧ ، فلما سمع جوته بالنبأ بكى . وفى ١٥ يونيو ١٨٢٨ مات الدوق ؛ وعرفت فايمار أن عصرها الذهبى أخذ يولى . واستعد جوته لدوره بالعكوف على فاوست بنشاط محموم . ولكن الدور لم يكن دوره بعد . ذلك أن أوجست ، ابنه الوحيد الباقى على قيد الحياة ، بعد أربعين سنة من الفشل ، وعشرين من الفسق ، مات فى روما فى ٢٧ أكتوبر ١٨٣٠ . وقد أظهر تشريح جثته أن حجم كبده خمسة أضعاف الحجم العادى . فلما أبلغ جوته بالنبأ قال (باللاتينية) « لم أكن أجهل أننى أنجبته إنساناً فانياً »(٩٨) . وكتب يقول « حاولت إغراق نفسى فى العمل وقد ألزمت نفسى بالمضى فى المجلد الرابع من كتاب « الشعر والحقيقة »(٩٩) .

وحين بلغ الثمانين بدأ يحد من مجال اهتماماته . ففى ١٨٢٩ كف عن قراءة الصحف . وكتب إلى تسلتر يقول « لست أستطع البدء بإنبائك بما اكتسبته من

وقت وما أنجزته من أعمال خلال الأسابيع الستة التى تركت فيها جميع الصحف الفرنسية والألمانية دون أن أفتحها » (١٠٠) « سعيد من كان عالمه فى بيته » (١٠١) . وقد حظى بالمحبة والرعاية من أرملة أوجست ، أوتيلييه ، واستشعر البهجة بأطفالها . ولكنه كان أحياناً يعتكف حتى عنهم ويطلب الخلوة التامة ويثنى على الوحدة لأنها المواسية والمحك للعقل المثقف .

ولقد أفصح وجهه الآن عن أعوامه الثمانين : غضون عميقة عبر الجبين وحول الفم ، وشعر فضى يتراجع ، وعيون هادئة متسائلة ؛ ولكن عوده ظل مستقيماً وصحته جيدة . وكان يفخر بأنه اجتنب القهوة والتبغ وكلاهما مذموم فى رأيه لأنه سم زعاف . وكان معجباً بطلعته وبكتبه ، يستطيب ثناء الناس عليه صراحة ، ولا يبذله إلا ضنيناً به . بعث إليه شاعر شاب فى ١٨٣٠ بديوان شعر ، فرد عليه جوته ينبئه بتسلمه رداً لاذعاً قال فيه « تصفحت كتيبك . ولكننى نحيته لأن على المرء فى وباء من أوبئة الكوليرا أن يحمى نفسه من المؤثرات المضعفة » (١٠٢) . وكان يضيق بأصحاب الكفايات الهزيلة ، وإزداد ضيقه بالناس أكثر فأكثر كلما أكرهته الشيخوخة على الانطواء على نفسه ، وقد اعترف بهذا فقال « كل من ظننى لطيفاً من واقع مؤلفاتى ألفى نفسه مخدوعاً أشد الخداع حين احتك برجل فيه برود وتحفظ (١٠٣) . ووصفه زواره بأنه بطىء الانفراج ، فيه شىء من التكلف والتصلب ربما نتيجة لارتباكه ، أو لضنه بالوقت ينتزع من واجباته . ومع ذلك فإن كثيراً من رسائله تدل على الرقة ومراعاة مشاعر الآخرين .

وطبق صيته الآن آفاق أوربا . وأشاد به كارليل — قبل موت جوته بزمن طويل — فحلا من فحول الأدب العالمى . وأهدى بايرون « ورنر » إليه ، وأهدى برليوز « هلاك فاوست » إلى « المونسنيور جوته » ؛ وأرسل إليه الملوك الهدايا . ولكن قراءه فى ألمانيا كانوا قله ، والنقاد مناوئين له ، وانتقص منافسوه من قدره ورموه بأنه عضو فى مجلس الأمير مغرور يدعى أنه شاعر وعالم . وأدان ليسنج « جوتز » و « فرتر » لأنهما هراء رومانسى ؛ واحتقر كلويشتوك « ارمان ودوروتيا » لأنه كتاب عادى لا امتياز فيه ،

و«افجينى» لأنه تقليد جامد لليونان . ورد جوته بعبارات متكررة من الاحتقار لألمانيا — لمناخها ، ومناظرها الطبيعية ، وتاريخها ، ولغتها ، وفكرها . وشكا من أنه أضطر « للكتابة بالألمانية ، وهكذا . . . أهدر الحياة والفن على أسوأ مادة »(١٠٤) . وقال لأصحابه ان « هؤلاء الألمان الحمقى » يستحقون تماماً هزيمتهم على يد نابليون فى يينا (١٠٥) ، وقد جاء دور المانيا لتضحك منه حين انتصر الحلفاء على بونابرت فى ووترلو .

وإذ انسلخ عن نهر الأدب الرئيسى (النهر الرومانتيكى) فى شيخوخته ، فقد عزى نفسه باحتقار ازداد عمقاً للعالم والإنسان . « تبدو الحياة كلها — إذا نظرنا إليها من قمم العقل — كأنها مرض خبيث ، والعالم كأنه مستشفى للمجانين » (١٠٦) . وكتب إلى تسلتر فى ٢٦ مارس ١٨١٦ « قبل أيام وقعت على نسخة من أول طبعة لآلام فرتر ، وبدأت ترتفع من جديد تلك الأغنية التى طال إسكاتها . وشق على أن أفهم كيف استطاع رجل أن يطيق العالم أربعين سنة مع أنه تبين سخفه حتى فى صباه » (١٠٧) . ولم يتطلع إلى أى تحسين ذى بال فى المستقبل . « ان الناس لا يعيشون إلا ليكدر ويقتل بعضهم بعضا . كذلك كان ، وكذلك هو اليوم ، وكذلك سيظل إلى أبد الدهر » (١٠٨) ، وكان يرى كما يرى معظمنا بعد الستين أن الجيل الجديد منحط . « ان هذه الحيلاء التى لاتصدق ، والتى يشب عليها الشباب ، ستتمخض بعد بضع سنوات عن أعظم الحماقات . . . ومع ذلك فهناك الكثير الذى يتحرك وينشط ، وقد يكون مبعث اغتباط فى السنين القادمة (١٠٩) » .

وفى ١٥ مارس ١٨٣٢ أصيب بنزلة برد وهو راكب عربته فى نزهة . ثم بدا أنه تماثل للشفاء فى الثامن عشر من الشهر ، ولكن فى اليوم العشرين كانت الإصابة قد نزلت إلى صدره ، وألهبته حمى النزله ، وشوه الألم وجهه . وفى الثانى والعشرين لاحظ أن الربيع بدأ ، وقال « لعل هذا يعيننى على البرء . « وكانت الحجرة قد أظلمت لأراحة عينيه ؛ فاعترض قائلا « أدخلوا مزيداً من الضوء » . وإذ كان لا يزال ضيقاً بالظلام أمر خادمه قائلا « افتح ستارة النافذة الأخرى ليدخل مزيد من الضوء . » وكانت هذه

فيما يبدو آخر كلماته . وكان قد قال لأوتيلييه « أيتها المرأة الصغيرة ، ناوليني كفك الصغيره » ومات بين ذراعيها قابضاً على يدها ظهر يوم ٢٢ مارس ١٨٣٢ بالغاً اثنتين وثمانين سنة وسبعة شهور (١١٠) .

ورأى اكرمان جثمانه فى الغد :

« كان الجسد عارياً إلا من كفن أبيض . . . وأزاح الخادم الملاءة فأذهلنى ما رأيت فى أطرافه من بهاء إلهى . وكان الصدر قوياً ، عريضاً ، مقبباً ، والذراعان والفخذان ممتلئة مفتولة فى رقة ؛ والقدمان أنيقتين وفى أكمل هيئة ؛ ولم يكن فى الجسم كله أثر لا لشحم ولا لنحول ولا لتحال . فقد رقد أمامى رجل كامل فى أجمل صورة ؛ وأنستنى بهجة المنظر لحظة أن الروح الخالدة قد فارقت هذا المسكن » (١١١) .

وهكذا اختتم عصر عظيم ، ابتداء من انتصار فردريك الكئيب فى ١٧٦٣ ، ومروراً بليسنج وكانط ، وفيلاند وهردر ، وانتهاء بشيلر وجوته . ولم يوفق العقل الألمانى منذ لوثر إلى مثل هذا النشاط والتنوع والثراء فى التفكير المستقل . ولم يكن بالكارثة على ألمانيا أنها لم تكن امبراطورية مترامية كامبراطورية بريطانيا مستغرقة فى الفتح والتجارة ؛ ولا ملكية ممركزة كالملكية الفرنسية يمزقها فشل الحكومة ؛ ولا استبدادية كاستبدادية روسيا تتخم نفسها بالأرض أو تخدر نفسها بالماء المقدس . ان ألمانيا — من الناحية السياسية — لم تكن قد ولدت بعد ، ولكنها فى الأدب كانت تتحدى العالم الغربى ، وفى الفلسفة تقود هذا العالم .

* * *